المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

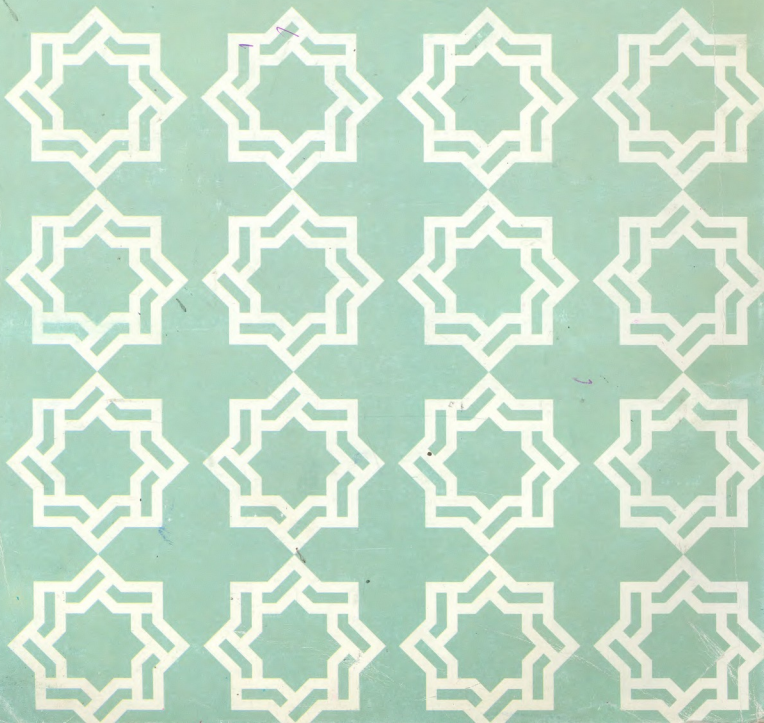

الصراع السياسي والاقتصادي حول السلطة

في بداية العصر الاموي

بقلم الدكتور

منذر البكر

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الاداب ـ جامعة البصرة

ان دراسة التاريخ السياسي للدولة الاموية يدفعنا الى دراسة طبيعة الصراع حول مركز الخلافة وتقصي الجذور الاجتماعية والاقتصادية لحركات التمرد التي حدثت خلال العصر ..

انطلاقا من حقيقة ان وحدة التناقضات الاجتماعية والاقتصادية في تركيب المجتمع الاسلامي ، وفشل الدولةالاموية في تصفية هذه التناقضات من اهم اسباب سقوط الدولة الاموية .

ولان مثل هذه الدراسة تحتاج الى بحث أوسع فقد اكتفينا في محاولتنا هذه الاقتصار وتتبع جذوره الاولى وبدايات ذلك الصراع .

يرى بعض المؤرخين ان العصر الاموي عصر صراع مستمر بين ثلاثة مبادىء هي : المبدا الاسلامي ، والمبدا القبلي ومبدا الوراثة (١) .

غير اننا نجد ان هذه المبادىء الثلاثة في واقع الامر تمثل اتجاه ثلاث فئات اجتماعية مختلفة ، نتبينه في صراع بين الارستقراطية العربية والارستقراطية الاسلامية والعامة . واتباع هذه الفئات كانوا قد دخلوا الاسلام بفترات مختلفة واعداد متفاوته وبخاصة الفئة الاولى (٢) .

ولكي تتضح لنا ابعاد هذا الصراع ومدى اثره على السلطة ، لابد لنا من القاء الضوء على اصول هذه الفئات الثلاث قبل دخولها الاسلام وبعده .

١ ـ الارستقراطية العربية :

وهي الفئة التي تحكمت بالاموال المستثمرة في التجارة قبل ظهور الاسلام . وقد حفظ لنا القرآن الكريم صورة حية عن طبيعة هذه الفئة وما كانت تمارسه من استغلال واضطهاد وتسلطها على الفئات الاخرى . وذلك لان مكة كانت مدينة تجارية مهمة (٣) . اذ استفادت من الوضع السياسي العالمي آنذاك وبخاصة في القرن السادس الميلادي (٤) . وكان سكانها لا يهتمون بغير التجارة وجمع المال حتى في بدايةدخولهمالاسلام(٥) ولهذا نجد ان بعض اللغويين فسر كلمة قريش بانها تعني جمع المال (٦) . وكانت لتجارة مكة رحلتان سنويا احداهما الى اليمن والاخرى الى الشام (٧) . مما دفع الى تكديس المال في ايدي تجارها واصحاب القوافل حيث بلغت اموالهم احيانا مئات الالوف (٨) .

من هنا نجد ان هذه الفئة وقفت موقفا معاديا من الاسلام الذي جاء من اجل تكوين مجتمع اسلامي ينعم بالمساواة والعدالة الاجتماعية (٨ب) ضد جشع التجار والمرابين . لذا

---

(١) راجع : الدكتور عبدالعزيز الدوري : النظم الاسلامية . بغداد ١٩٥٠ ص ٣٨–٣٩ .

(٢) راجع عنها :

M. Watt : Islam and the Integration of Society. London, 1961 p. 12.

وات : محمد في مكة ـ تعريب شعبان بركات ص ١٤٧–١٦٠

(٣) مكسيم رودنسن : الراسمالية والاسلام . ترجمة نزيه الحكيم بيروت ١٩٦٨ص ٦٩–٧٠ ص ٧٩ .

(٤) راجع الدكتور عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . بيروت ٩٦٨ ص ١١–١٢ .

(٥) انظر سعيد الافغاني : اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ط . الثانية ١٩٦٠ ص ٣١ .

(٦) وقيل لانهم اهل تجارة ولم يكونوا اصحاب ضرع وزرع ومن قولهم فلان يتقرش المال اي يجمعه . راجع : ابن منظور : لسان العرب ط . دار صادر بيروت ١٩٥٦ ج ٦ ص ٣٣٥ والزبيدي : تاج العروس ط . دار صادر بيروت ٩٦٦ جـ ٤ ص ٢٣٧ والجوهري : الصحاح تحقيقاحمد عبدالغفور جـ ٣ ص ١٠١٦ .

(٧) يقول سبحانه وتعالى : (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) .

(٨أ) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٢٢ و

(٨ب) راجع

H.A.R. Gibb : Mohammedanism. London, 1961 Se. Ed., p. 25.

H. Ley : Studie zur Geschichite des Materialismus im Mitterlatter. Berlin 1957. p. 24.

قاومت هذه الفئة الاسلام مقاومة ضارية دفاعا عن مصالحها السياسية والاقتصادية ، حتى انهم حاولوا اغراء الرسول (ص) للكف عن هذا الدين . لكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، مما دفعها الى اتخاذ موقف عسكري لضرب هذه الحركة . غير ان الظروف لم تكن من صالحها فدخلت الاسلام رغبة في الحفاظ على مصالحها الاقتصادية ..

والحق يقال اننا لا نملك نصوصا تاريخية تبين بصورة قطعية انهم (اي الفئة الاولى) احسنوا اسلامهم او انهم تقبلوا الامر الواقع (٩) بدليل انهم عاودوا الكره بعد اسلامهم املا في استعادة امجادهم السابقة وتحقيق مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية .

وهذا ما كشفته الاحداث بعد وفاة الرسول (ص) اذ تجمع قسم من بني امية (وهم خير من يمثل هذه الفئة) عند عثمان ابن عفان ، بينما ذهب قسم منهم لمبايعة الامام علي بن ابي طالب(١٠) وهذا الموقف طبيعي كي يحافظوا على مصالحهم الاقتصادية ، خوفا من الفئة الثانية التي تعد المنافسة لهم كما سنرى ، بينما اتفق الجمهور على مبايعة ابي بكر . وبالرغم من قصر الفترة التي تولى ابو بكر السلطة فانه وقع تحت تاثير الفئة الاولى . كذلك كانت الحال مع الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ حصل بعض ممثليهم على مراكز سياسية مهمة مثل معاوية بن ابي سفيان . الا ان كل هذه المكاسب السياسية وما تبعها من مكاسب اقتصادية لم ترق الى مستوى ما كانت تطمح اليه هذه الفئة (١١) .

غير ان انتخاب عثمان للخلافة كان نجاحا كبيرا للفئة الاولى ، ذلك ان عثمان كان ينتمي الى طبقة الاشراف من قريش التي ظلت تمثل القوة الاقتصادية والاجتماعية السائدة في مكة والجزيرة العربية (١٢) وكانت مبايعته دليلا ساطعا على وجود اتفاق متبادل بين الاسلام وقريش كما يسميه كاهن (١٣) .

وقد نمت هذه الفئة اقتصاديا وسياسيا في عهد عثمان نموا لا مثيل له (١٤) اذ قام بقطع اقطاعيات كبيرة لبعض اقربائه . اذ يذكر البلاذري : (ان اول من اقطع اقطاعيات في ارض العراق هو عثمان بن عفان) (١٥) . يضاف الى ذلك زيادة العطاء لافراد هذه الفئة ، فقد اعطى عثمان عبدالله بن خالد بن اسيد خمسين الف درهم واعطى مروان بن الحكم خمسة عشر الفا (١٦) وقس على ذلك .

ان هذه الاجراءات الاقتصادية شجعت هذه الفئة لاستعادة مجدها الاقتصادي والسياسي القديم . ثم ان ممارستها التجارة في البلاد المفتوحة (١٧) زادت في تكديس الثروات الطائلة بيدها (١٨) مما دفعها لاستملاك الاراضي لا سيما ظهور مبدأ خطير في الاقتصاد الاسلامي هو استصلاح الاراضي الموات واستملاكها ، الذي ادى بالتالي الى اضطهاد الفلاحين وتطوير الاقطاع في الاسلام ونموه .

٢ ــ الارستقراطية الاسلامية :

وهي الفئة الثانية التي دخلت الاسلام بحصيلة مالية محدودة ونفوذ سياسي غير بارز بروز ما كانت تملكه الفئة الاولى (١٩) . لهذا فقد ناصرت الاسلام لكي تتخلص من استبداد الفئة الاولى . وهذا ما يفسره لنا مثلا دخول اهل يثرب (المدينة) الاسلام . اذ كان تحالفهم مع الرسول (ص) تحالفا طبيعيا لان اغلب اهل المدينة من الزراع والفلاحين(٢٠) المستغلين من المرابين والتجار . غير ان هذه الفئة ، التي اذا جاز لنا ان نسميها الفئة المتوسطة ، كان لها الاستعداد الطبيعي للنمو الاقتصادي وقد ساعدها على النمو مادرته الفتوح الاسلامية من تكديس للاموال (٢١) ، ثم بانفاق جميع الضرائب محليا ولمصالحهم الخاصة (٢٢) .

وقد سهل انتشار الاسلام عملية التجارة في المجتمع الاسلامي (٢٣) وقد لا نغالي اذا قلنا ان معظم الناس اشتغلوا بالتجارة (٢٤) . وليس مستبعدا ان يكون تحريم الربا دافعا على

---

(٩) يظهر ان ابا سفيان وهو من الفئة الاولى كان ينتمي الى الجمعيات السرية ، التي كان من اهدافها التخريب السياسي .
راجع : الدكتور محمود قاسم : دراسات في الفلسفة الاسلامية
ط . الثانية القاهرة ٩٦٧ ص ٩٧-١٢٣

(١٠) راجع الرواية عند الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ط . الاوربية جـ ٤ ص ١٨٢٧ .

(١١) B. Lewis: The Arabs in History, London, 1966. Four, Ed. p. 59.

(١٢) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية . ترجمة د . بدرالدين القاسم . بيروت ١٩٧٠ جـ١ ص ٣١
C.H. Becker: Islamstudien Lde. 1967 Bd. I. p. 99.

(١٣) كلودكاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية جـ١ ص٣٢

(١٤) يقول الدكتور الدوري : شهدت هذه الفترة حصول ثروات كبيرة في ايدي جماعة محدودة من المسلمين . راجع التفصيل عند الدكتور عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص١٩ .

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ القاهرة ١٩٦٠ ص٨٧ .

(١٦) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية . ط . دار صادر بيروت ٩٦٠ ص ٩٧
F. Gabrieli: Muhammad and the Conquests of Islam. London, 1968. p. 94.

(١٧) مكسيم رودنسن : الراسمالية والاسلام ص٧٢

(١٨) الدكتور عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ١٩

(١٩) M. Watt. Op. cit., p. 12.

(٢٠) م . وات . محمد في مكة ص ٢٢٨

(٢١) في هذا المجال نذكر غزو ابن ابي سرح لافريقية وما حصل عليه الشخص من اموال . قال محمد بن سعد : بلغ سهم الفارس ثلاثة الاف مثقال ذهبا وسهم الراجل الف مثقال ذهبا . وقال ابو ادريس : انه غزا مع عبدالله بن سعد افريقية قال : فافتتحها فأصاب كل انسان الف درهم . راجع خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط . تحقيق اكرم العمري بغداد ١٩٦٧ جـ ١ ص ١٣٥

(٢٢) كلود كاهن : تاريخ العرب جـ ١ ص ٣٢

(٢٣) راجع المقالة التي قدمها روجيه كارودي في المؤتمر العالمي للتاريخ والاثار الاول في بغداد الموسومة بالاسلام والاشتراكية ص ٣

(٢٤) راجع التفصيل عند سعيد الافغاني : اسواق العرب ص٣١

التحول الى الاهتمام بالبيع والشراء (٢٥) . يقول سبحانه وتعالى : (وحللنا البيع وحرمنا الربا) مما ادى بالتالي الى جمع المال .

يضاف الى ذلك ان رؤساء القبائل واشرافها الذين اشتركوا بالفتوح الاسلامية تنبهوا الى اهمية الارض واتجهوا الى امتلاكها (٢٦) .

٣ ـ الفئة الثالثة :

ان العوامل السابقة ادت الى تطور هذه الفئة اقتصاديا وسياسيا مما دفعها بعد ذلك الى محاولة العمل على تسلم السلطة السياسية .

تضم المستضعفين (٢٧) والفقراء والعبيد والصعاليك(٢٨)، وقد عكس لنا الكاتب العربي الطوباني ايمبولس آمال هذهالفئة وما كانت تقاسيه في قصته المشهورة بـ (دولة الشمس) (٢٩) .

كذلك بين لنا شعر الصعاليك في الجاهلية ما كانت تقاسيه هذه الفئة في شبه الجزيرة العربية من حرمان وفقر (٣٠) . وهي العناصر التي دخلت الاسلام دون تردد ، لكي يتخلصوا من واقعهم المرير ، لا سيما ان الاسلام جاء من اجل اقامة تكافل اجتماعي ينعم به الفرد .

فلا غرابة اذن ان تجد هذه الفئة في الاسلام المنقذ من الفاقة والجوع والهادي الى الحياة الافضل والمحرر من العبودية والقنانة .

من هذا المنطلق تقف هذه الفئة دائما في المجتمع الاسلامي موقف المعارض لاي استغلال اقتصادي (٣١) ، ولم تتبن هذه المعارضة العنف في عهد عمر بن الخطاب رغم التارجح فيسياسته الاقتصادية ، لكنها تمردت على سياسة عثمان الاقتصادية والمحسوبية (٣٢) ، فحاصروه في بيته وقتلوه ، ثم بايعوا الامام عليا الممثل الحقيقي لآمال هذه الفئة ، الذي سرعان ما نظمت ضده الثورات للتخلص منه .

وقد بقيت هذه الفئة في الاسلام وراء اية ثورة او تمرد اجتماعي ضد التسلط الطبقي .

وانظر : مكسيم رودنسن : الراسمالية والاسلام ص٧١ وما بعدها .

(٢٥) ذكر مسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال : انكم تزعمون ان ابا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ـ والله الموعد ـ كنت رجلا مسكينا اخدم رسول الله (ص) على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالاسواق وكانتالانصار يشغلهم القيام على اموالهم . نقلا عن احمد امين : فجر الاسلام ط . العاشرة ١٩٦٥ ص ٢١٩ .

(٢٦) الدكتور عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٢٣ .

(٢٧) M. Watt. Op. cit., p. 12.

(٢٨) F. Gabrieli : Op. cit., p. 50.

(٢٩) راجع تفصيل ذلك : الدكتور منذر البكر ـ ايمبولس الكاتب العربي الطوباني . مجلة المورد ج ٢، ١ بغداد ١٩٧١ ـ ص ٩ـ١٢ .

(٣٠) راجع الدكتور يوسف خليف : الشعراء الصعاليك في الجاهلية ط . الثانية . دار المعارف .

(٣١) وفي هذا المجال نذكر موقف ابي ذر الغفاري من التحولات الاقتصادية في المجتمع الاسلامي .

(٣٢) C.H. Becker : Op. cit., p. 100.

الصراع السياسي والاقتصادي :

ان الصراع السياسي والاقتصادي بين هذه الفئات الثلاث كان موجودا قبل ظهور الاسلام ، رغم ان حكومة الملأ وحلف الفضول يمثلان تقريبا نوعا من التحالف بين الفئة الاولى والثانية من اجل ضمان التسلط السياسي والاقتصادي (٣٣) .

وعند مجيء الاسلام انضوت تحت لوائه معظم ابناء الفئة الثالثة واغلب الفئة الثانية وبعض الشباب من الفئة الاولى(٣٤) .

ان التصادم الطبقي اذا صح التعبير حول المركز السياسي للدولة لم يظهر في الاسلام الا بعد وفاة الرسول (ص) وبصورة لم تتسم في بداية الامر بالعنف . وقد استطاعت الارستقراطية الاسلامية المجيء الى الحكم بعد مناورات سياسية وتقديم بعض التنازلات للارستقراطية العربية (٣٥) سياسيا واقتصاديا (٣٦) . وبنفس الوقت قامت باصلاحات اقتصادية خصوصا في زمن عمر بن الخطاب الذي رفض ان يقسم الاراضي الخراجية (٣٧) وجعلها ملكا للحكومة .

غير ان اجراءات عمر المالية والاقتصادية لم تمنع من تكديس الاموال بايدي فئة معينة حتى نجده يتنبه الى ذلك بقوله : (لو استقبلت من امري ما استدبرت لاخذت من الاغنياء فضول اموالهم فقسمتها على الفقراء) (٣٨) ولهذا فنحن لا نستبعد ان يكون مقتل الخليفة عمر ، من تدبير الفئة الاولى التي اغاظتها اصلاحاته واجراءاته الاقتصادية . يقول ابن طباطبا (لما وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج اغتاظ من ذلك ابو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبه لانه كان قد وضع الخراج على مولاه) (٣٩) والا كيف لنا ان نفهم سبب مقتل الخليفة ؟ .

---

(٣٣) انظر تفسير الدوري في كتابه مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص١٢

وراجع ما ذكره وات في كتابه محمد في مكة ص ٢٣ـ٢٨ وهذا ما نلمسه بعد هزيمتهم في معركة بدر الى تكوين حكومة تحالف : المصدر نفسه ص ٤٦ .

(٣٤) F. Gabrieli : Op. cit., p. 5 and M. Watt. Op. cit., p. 12.

(٣٥) B. Lewis : Op. cit., p. 59.

(٣٦) حدثان بارزان في خلافة عمر احدهما يتمثل في ابعاد عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة وتولية معاوية ولاية الشام .

(٣٧) قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية . فاراد قسمة الارض بين المسلمين لانها فتحت عنوة ، فقال معاذ بن جبل : والله لئن قسمتها ليكونن ما تكره وانتهىالكلام الى قول معاذ . وفي رواية اخرى جاءت عند البلاذري ايضا وهي : لما افتتح عمر السواد قالوا له : اقسمه بيننا فانا فتحناه عنوة بسيوفنا . فابى وقال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ واخاف ان قسمته انتتفاسدوا بينكم في المياه . قال : فاقر اهل السواد في ارضهم ، وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى ارضهم الفسق ، ولم تقسم بينهم . البلاذري . فتوح البلدان ص ١٧٩و٢٢٩ .

(٣٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٢٢٦ .

(٣٩) ابن طباطبا : الفخري ص ١٦ وانظر كذلك F. Gabrieli : Op. cit., p. 94.

وبعد مقتله قامت الفئة الاولى بحملة دعائية من اجل انتخاب عثمان بن عفان ولا نقالي اذا قلنا انهم اتبعوا بعض الاساليب الانتخابية القائمة في بعض الدول من بذل الاموال والاغراء بالمناصب وكدليل على ما نقول نورد نصا من كتاب الامامة والسياسية جاء فيه : (ان عبدالرحمن بن عوف خرج يسال الناس ، فلم يلق احدا يستشيره ولا يساله الا ويقول عثمان ، فلما راى اتفاق الناس واجماعهم على عثمان) جاء عثمان الى الحكم(٤٠) . ترى الا يشير هذا الى ان موقف عبدالرحمن بن عوف وهواه ما كان مع الفئة الاولى رغم اعتزاله العمل السياسي في اواخر ايامه .

والخليفة عثمان بن عفان ينتمي الى الفئة الاولى التي كانت لفترة طويلة العدو الرئيسي للرسول (ص)(٤١) لذلك فمجيء عثمان الى الحكم كان بمثابة انتصار سياسي لها ، كما تبع ذلك تطور اقتصادي . اذ ازدادت الاقطاعيات على حساب الاراضي الخراجية وازداد ما كان يعطى لهذه الفئة على حساب مصالح مجموع المسلمين مما ادى بالتالي الى تنامي المعارضة لحكم الخليفة عثمان (٤٢) .

ان سياسة عثمان المالية التي نفذها تحت تاثير مصالح الفئة الاولى ، ادت الى ظهور تناقض اقتصادي واجتماعي عنيف داخل تركيب المجتمع الاسلامي . كما ان هذا الصراع ادى الى نشوب ثورة من اجل اصلاح الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وهي التي سميت بالفتنة الكبرى ، غير اني افضل تسميتها بثورة الفئة الثالثة من اجل اقامة مجتمع اسلامي ينعم بالعدالة الاجتماعية .

ان زعماء الثورة ارتضوا الامام عليا خليفة للمسلمين.وكان من نتائج محاولة الامام علي اجراء اصلاحات اقتصادية وسياسية ان تعاظمت حدة التناقضات لدرجة ادت الى دخوله في صدام حربي مع طلحة والزبير كالذي حدث في معركة الجمل .

ثم حدث بعد ذلك الاصطدام مع معاوية بن ابي سفيان.الممثل الحقيقي لاطماع الفئة الاولى . ومما هو جدير بالذكر انمعاوية كان يخطط منذ فترة بعيدة للاستيلاء على الحكم (٤٣) . ثم العمل على استمالة بعض زعماء القبائل العربية وتقريب بعض الشخصيات المعروفة الى جانبه بعد ان اغراهم بالمناصبكالذي فعله مع عمرو بن العاص . مما ساعده على تثبيت مكانته في الشام . وبعد اغتيال الامام علي وتنازل الحسن لمعاوية سيطرت الفئة الاولى على الحكم وعادت تحكم كما كانت قبل الاسلام ولكن الان تحت راية الاسلام .

وكان من نتائج غياب الامام علي عن المسرح السياسي وخيبة امالها بالحسن ان راحت الفئة الثالثة تفتش عن زعيم لها يقودها في نضالها ضد الاستغلال فوجدته في شخص الحسين .

بينما قامت الفئة الاولى بعدة اجراءات اقتصادية وسياسية لتثبيت مراكزها ، يضاف الى ذلك قيامها بجملة اغتيالات تصفية لزعماء الفئة الثالثة واغراء بعضالشخصيات التي كانت مناوئة في يوم من الايام بالمناصب والمال وغير ذلك كما حدث مع زياد بن ابيه . وهذا الاسلوب الذي اتبعه معاوية كان يتفق ومصالح الفئة التي ينتمي اليها سياسيا واقتصاديا .

اما الارستقراطية الاسلامية فكانت متارجحة الموقف . فهي تخشى الارستقراطية العربية وجشعها الاقتصادي . كما ان اهدافها الاقتصادية لا تتفق وطبيعة اهداف الفئة الثالثة ، لذلك نجد ان بعض اجنحتها آزرت الارستقراطية العربية وهذا واضح في موقفها من ثورة الحسين ، في حين وقف جناح اخر موقف اللامبالاة منها .

وقد كانت الاهداف التي ناضل من اجلها الحسين تمثل المصالح العريضة للجماهير المستغلة . غير ان الظروفالموضوعية ربما لم تكن مؤاتية لنجاح هذه الثورة ولربما لم تكن جماهير المسلمين انذاك ذات وعي اقتصادي واضح ، لذلك قضي عليها قضاء تراجيديا ولكن رغم ذلك لم يقض على افكارها اذ بقيت هذه الفئة ثائرة على التسلط الاقتصادي والاجتماعي وهذا ما تفسره لنا الثورات المتكررة في المجتمع الاسلامي .

ان التطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي والائتلاف (اذا صح التعبير) بين الارستقراطية العربية والارستقراطية الاسلامية لم يدم طويلا اذ سرعان ما ظهرالتناقض بين مصالح هاتين الفئتين واطماعهما لان الارستقراطية العربية تبقى المحافظة على مصالحها الاقتصادية ومراكزها السياسية ، بينما وجدت الارستقراطية الاسلامية نفسها في المركز الثاني(٤٤) ورغم ان هذا التناقض كان موجودا في المجتمع الاسلامي الا انه لم يبرز بهذا الوضوح الا بعد فترة من القضاء على ثورةالحسين. حيث تبلور موقف الارستقراطية الاسلامية من الاستقراطية العربية وادى بالتالي الى ظهور ازمة سياسية بين الفئتين بلغت ذروتها بمجيء يزيد بن معاوية الى الحكم ومقتل او وفاة معاوية الثاني .

وبالرغم من ان هذه الازمة شملت اغلب الاقاليم الاسلامية لكننا سنحصرها باقليم الشام بين حسان بن مالك بن بحدل والاموية من جهة وبين الضحاك بن قيس من جهة اخرى . اذ يمثل احدهما الفئة العربية الارستقراطية بينما يمثل الاخر الارستقراطية الاسلامية . ويعلق فلهاوزن على اسباب النزاع بقوله : (ان القيسية اعتقدوا انهم اصبحوا من المرتبة الثانية لمصاهرة الكلبيين لمعاوية من البيت الحاكم ، ويقول : وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا . (٤٥)

غير اننا نعتقد ان هذا الصراع هو صراع اقتصادي له علاقة مباشرة بالتطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي ككل ، وهذا ما ذكرناه في هذا البحث ولكي يصبح الامر جليا نضيف الى طبيعة الصراع بين الارستقراطية الاسلامية والارستقراطية العربية الاتي : ـ

١ ـ ان معظم المؤيدين للامويين ينحدرون من اصول قبلية مستقرة زاولت التجارة منذ القديم . وكانت منازلهم تقع على الطرق التجارية المهمة آنذاك فاستفادوا من ذلك اقتصاديا . ودليلنا على ذلك ما كانت تدفعه القوافل

---

(٤٠) ابن قتيبه : الامامة والسياسة ط. الثالثة القاهرة ١٩٦٣ جـ ١ ص ٢٦ والدوري : النظم ص ٣٢-٣٣

(٤١) C.H. Becker. Op. cit., p. 100.

(٤٢) C.H. Becker. Op. cit., p. 100.
F. Gabrieli : Op. cit., p. 94.

(٤٣) C.H. Becker. Op. cit., p. 87.

(٤٤) يوليوس فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها . ترجمة الدكتور عبدالهادي ابو ريده القاهرة ١٩٥٨ ص ١٧٧

(٤٥) المصدر نفسه .

التجارية من اموال اثناء مرورها من اليمن الى الشام (٤٦) .

لذلك كان موقفهم مع الامويين موقفا تدفعه المصالح الاقتصادية والاجتماعية المشتركة لضرب المنافسين . وهذا ما يفسره موقف ابن بجدل مع الامويين ككل والمؤيد للفرع السفياني اول الامر ثم الداعم للفرع المرواني والمؤيد لمجيء مروان بن الحكم للخلافة (٤٧) .

٢ ـ ان معظم المؤيدين للضحاك يمثلون الارستقراطية الاسلامية التي نمت قوتها الاقتصادية في ظل الاسلام وايدت الارستقراطية العربية لمصالحها الاقتصادية في بداية الامر، لكنها احست بخطورة الامر فكان التناقض السياسي والاقتصادي دافعها الى الحرب .

٣ ـ التردد الذي تتصف به الارستقراطية الاسلامية في موقفها السياسي من الارستقراطية العربية . وهذا ما نلاحظه في موقف الضحاك زعيم القيسية نفسه الذي وافق على التفاوض مع ابن بحدل والامويين في الجابيه اول الامر ، لكنه انقلب في آخر لحظة تحت ضغط اتباعه (٤٨) .

---

(٤٦) يذكر ببلني الكبير : كان البخور واللبان والتوابل تحمل من جنوب الجزيرة العربية الى غزة على ظهور الجمال في ٦٥ مرحلة ، فتدفع عنه عائدات كثيرة الى زعماء القبائل البدوية الذين يجتازون اراضيهم . كان هناك ثمن للماء ، وثمن للعلف واجر للمرابط ، ورسم على المرور بحيث كانت تكاليف الجمل حتى شواطئنا تبلغ ٦٨٨ درهما رومانيا = ٢ر٧ كيلوغرام من الفضة . نقلا عن مكسيم رودنسن : الرأسمالية والاسلام ص ٧٤ .

(٤٧) راجع الروايات عند : الطبري : تاريخ جـ٥ ص٣٢٥ـ٣٢٦ وانظر الدوري : النظم ص ٤٠ـ٤١ .

(٤٨) مما يذكر ان ثور بن حصن بن زيد بن الاخنس السلمي احد رجالات الضحاك جاء اليه وكلمه قائلا : دعوتنا الى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك وانت تسير الى هذا الاعرابي تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد .. وانتهى الكلام بان مال الضحاك الى ما اقترحه عليه ثور .
راجع : الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ٥ ص٥٣٤ وابن الاثير : الكامل جـ٣ ص٣٢٧ .

(٤٩) نقلا عن فلهاوزن : الدولة العربية ص ١٧٥ .

(٥٠) راجع خطب يزيد في الطبري : تاريخ الرسل : جـ٧ ص ٢٦٨ـ٢٦٩ و ص ٢٧٥ .

كما يظهر لنا ايضا ان الضحاك كان يبغي الطريق السلمي للوصول الى الحكم بدلا من طريق العنف اذ يذكر لنا الواقدي نقلا عن ابناء الضحاك : ان ذلك كذب من جانب آل الزبير ، وان الضحاك اراد ان يبقى محايدا اصلا في الوصول الى كرسي الخلافة ، اما مبايعته ابن الزبير فلم تكن الا على كره (٤٩) .

وهذا التردد وعدم وحدة الهدف السياسي تقريبا سهل عملية ضربهم في معركة مرج راهط (٦٤هـ) رغم كثرة عددهم .

ان انتصار الارستقراطية العربية في معركة مرج راهط كان انتصارا حتميا ومنطقيا وذلك لعدم ملاءمة الظروف السياسية والاقتصادية لنجاح الارستقراطية الاسلامية في هذه المرحلة .

لكن هذا لا يعني عدم قيام ثورات اجتماعية في المجتمع ضد التسلط السياسي والاقتصادي . اذ ان وحدة التناقض في المجتمع تؤدي بطبيعة الحال الى ثورة وهذا ما تعبر عنه ثورة عبدالرحمن بن الاشعث وثورات الطبقات المستغلة في مصر وغيرها .

وقد تنبه بعض الامراء الامويين الى ما تقاسية الطبقة المستغلة فاتخذ من دفاعه عنها ستارا يخفي اطماعه السياسية كما فعل يزيد بن الوليد في ثورته (١٢٦هـ) على الوليد الثاني (٥٠) .

وهكذا بقي العصر الاموي يمثل حدة التناقضات الاجتماعية والاقتصادية في تركيب المجتمع الاسلامي الذي ادى فيما بعد ذلك الى سقوط الدولة الاموية .